المشرق

# نبذة

## في الليتورجية القبطيَّة الحديثة والقديمة

للاب لويس شيخو اليسوعيّ

انَّ خبر ارتقاء غبطة الحبر الفضال والعلاَّمة الملفـان السيّد كيرلّس مقار الى الكرسي البطريركيّ الاسكندري على طائفة الاقبـاط الكاثوليك قد رنَّ صداهُ في جميع انحاء المعمور فصار من جرّاء ذلك للامَّة القبطيَّة شأن خطير حبَّبهـا الى قلوب اهل الخافقين فودَّ كثيرون لو وقفوا على شيء من مميّزات هذه الطائفـة وخواصّها الليتورجيَّة. فاجابةً الى سؤلهم اسرعنا الى كتابة هذه النبذة الموجزة علَّها تبرّد حرقة غلّتهم إلَّم تُروِ حرَّتهم تمامًا. فنقول:

ان تصفَّحت كتاب خولوجيون (١ الاقباط المطبوع حديثًا في المطبعة القبطيَّـة المرقسيَّة (٢ وجدت انَّ لهم ثلاثة نوافير (٣ كبارًا او قدّاسات يليها نافور صغير يُدعى تعمير الكاس

### ١ النوافير الحالية

النوافير الكبار الثلاثة المستعملة اليوم عند الاقباط تُنسب للملافنة القديسين باسيليوس وغريغوريوس وكيرلّس

واشهر هذه النوافير نافور القديس باسيليوس وهو اسقف قيصاريَّة من اعمـال

---

١) الخولوجيون والاخولوجيون تعريب اللفظة اليونانيَّة Εὐχολόγιον ومعناها كتاب الصلوات

٢ طُبع هذا الكتاب اوّلاً في رومية الكبرى سنة ١٧٣٦ جمعهُ السيد الشهير روفائيل طوخي الجرجاوي اسقف ارسينوا حتَّى جُدّد طبعهُ آخرًا في المطبعة المرقسية التي انشأها غبطة السيد كيرلّس مقار ٣) النافور من اليونانيَّة ἀναφορά يُراد بهِ تقديس الاسرار

قبادوقية ممَّن برزوا بفضائلهم السامية وعلومهم الفاضية في اواسط القرن الرابع عشر للمسيح . وكان سبب وضعه لهذا التافور انهُ احس من مؤمني عصره فتوراً فخمدت حرارة ايمانهم وتراخت همَّتهم في حضور الرتب الطقسيَّة التي وضعتها الرسل وكانت هذه الطقوس مطوَّلة يسأم الحضور لطولها فعمد القديس باسيليوس الى ليتورجية يعقوب الرسول اسقف اورشليم فاختصرها باللغة الرومية وسبكها في قالب جديد لينشط المؤمنون باستماعها . قال صديقهُ القديس غريغوريوس عنهُ في تأبينهِ : « وهو الذي نظَّم ترتيب الصلوات المقدَّسة التي تتلى على المذابح » . وزاد القديس فرقاوس خلف القديس يوحنا فم الذهب على كرسي القسطنطينيَّة : « انَّ ليتورجيَّة القديس باسيليوس ملخَّصة عن ليتورجيَّة يعقوب الرسول وكليمس تلميذ الصفا »

وما كاد القديس باسيليوس ينتهي من هذا المشروع الجليل حتى اخذت الكنائس الشرقيَّة تأنوزهُ الجديد وجرت عليهِ حتى عمَّ استعمالهُ بعد قليل كلَّ كنائس آسية الصغرى وكثيراً من كنائس الشام ومصر . وتافورهُ شائع بين الاقباط يتلونهُ في كلّ ايام السنة ما خلا بعض الاعياد . اما الروم فانهم يتلونهُ الآن في بيرامون عيدي الميلاد والغطاس وفي آحاد الصوم الّا احد الشعانين وفي يوم خميس العهد وفي سبت النور وعيد صاحب التافور

ومن ليتورجيَّة القديس باسيليوس اشتقَّ القديس يوحنا الذهبي الفم ليتورجيَّتهُ وهي اقصر منها وقد شهد بذلك القديس فرقاوس خلفهُ (١ ولم يكن في الاصل بينهما اختلاف يُذكر (٢ ثمَّ زيد في كليهما بعض صلوات وطقوس منها التريساغيون ادرجها القديس فرقاوس المذكور بعد الجمع الخلقيدوني بزمن قليل بايعاز الملكة القديسة بلخارية

على انَّ الاقباط الخاضعين للبطريرك الاسكندري لم يرضوا بتغيير ليتورجيَّتهم التي كانوا يعزونها للقديس مرقس البشير وجروا عليها مدَّة طويلة الى ان زادت سطوة بطاركة القسطنطينيَّة ونفذت كلمتهم في الشرق فصاروا يلحُّون على بطركي انطاكية

---

١) راجع كتاب العلَّامة دون غيرانجهْ (Don Guéranger) المشهور Institutions litur - giques الجزء الخامس ص ٢٣١ وكتاب منارة الاقداس للدويهي ٢ : ١٥٠

٢ وقيل انَّ ليتورجيَّة يوحنا فم الذهب مختصرة من ليتورجية الرسل وانَّهُ لم يلخص الليتورجية الباسيلية . وزعم البعض ان الليتورجية نُسبت اليهِ اجلالاً لهُ . والصواب كما قلنا

غبطة السيد الملفان كيرلس الثاني مقار
البطريرك الاسكندري على القبط الكاثوليك الكلي الطوبى
والسيدان الجليلان مكسيموس صدناوي واغناطيوس برزي
والكاهنان الفاضلان لويس سلامة وحنا دوس
تهنئة من مدرستنا الكلية لتلامذتها الملافنة الاقدمين

والاسكندريّة باتباع طقوس عاصمة الروم. ولمّا قصد مرقس البطريرك الاسكندري مدينة القسطنطينيّة في غضون القرن الثاني عشر ورآهُ باسيون البطريرك القسطنطيني أنهُ يقدّم الذبيحة وفقاً لتقاليد كنيستهِ المصريّة انكر عليهِ ذلك وادّعى امام سلطان الروم « أنهُ ينبغي على كل كنائس الله ان تقتفي آثار رومية الجديدة وتقيم الذبيحة على طريقة الملفانين المعظمين ومصباحي الايمان القديس يوحنّا فم الذهب والقديس باسيليوس » (١. فاضطُرّ مرقس ان يتّخذ ليتورجيّة القسطنطينيّة. ولعلّهُ هو الذي اذاعها في جميع الاقطار المصريّة. ثمّ انفصل الاقباط الكاثوليك بعد ذلك في القرن الثالث عشر وابوا الخضوع لبطاركة الاسكندريّة لما وجدوا فيهم من الذلّ والانقياد الى مطامع كنيسة القسطنطينيّة لكنّهم حفظوا نافور القديس باسيليوس وأنفوا ان يعودوا الى ليتورجيّتهم بعد ان بطل عندهم استعمالها وألفوا ما سواها من الطقوس

وما يُقتضى هنا ملاحظتهُ انّ الليتورجيّة اليونانيّة المنسوبة الى القديس باسيليوس تختلف في صلوات كثيرة عن الليتورجية القبطيّة المعروفة باسمهِ وهذا الاختلاف نفسهُ موجود بين النسخ اليونانيّة القديمة فيستدلُّ من ذلك على انّ الكنائس الشرقيّة تصرفت في ممرّ الاجيال بهذه الليتورجيّة وزادت فيها بعض الصلوات وبدلت اخرى او اختصرتها حتى انّها لا توافق بعضها بعضاً اللهمّ الّا في اقسامها الجوهريّة (٢. وما لا ريب فيهِ انّ ليتورجيّة الاقباط بقيت على حالها منذ القرن السابع

٢ الليتورجية الثانية التي تجدها في كتاب افخولوجيون الاقباط تُنسب الى القديس غريغوريوس النزينزي المعروف بالثاولوغس. والكتبة المصريّون كابن عسّال وابي البركات وجبرائيل بن طريق يشيدون بصوت واحد انّها لهذا الملفان الجليل. ولعلّ بعض العبارات الواردة في هذا النافور تؤيد ذلك فانّها تشهد لصاحبها بالتضلّع في علم اللاهوت

على انّ هذا النافور لم يُعرف عند الروم الذين ينسبون الى غريغوريوس الثاولوغس ليتورجيّة اخرى تعرف بالبروجيازمانا (Προηγιασμένα) اي السابقة التقديس يتلونها في الصوم الكبير غير الاحاد والسبوت منهُ والثلاثة الايام الاخيرة من الجمعة الكبرى. وفي هذه الليتورجيّة لا يصير تقديس الخبز والخمر وانّما تُتلى صلوات معلومة امام القربان

(١ راجع تاريخ الكنيسة الاسكندريّة لصاحب النبذة البطريرك كيرلّس مقار ص ٢٩٦

(٢ راجع رينودوت Liturgiarum Orient. Collectio I, 169 - 300

الذي سبق تقديمهُ . وليس بين صلوات البروجيازمانا وليتورجية الاقباط المعروفة باسم القديس غريغوريوس ادنى شبه وتطابُق

وهذه الليتورجية يستعملها الاقباط في بعض الاعياد الحافلة . ومن خواصها انَّ الكاهن يوجِّه فيها صلواتهِ الى الكلمة ابن الله الحيّ بخلاف ليتورجيَّتي القديسين باسيليوس وكيرلُّس والخطاب فيها الى الله الآب

٣ امَّا الليتورجيَّة الاخيرة التي يستعملها الاقباط فهي منسوبة لبطريركهم العلامة الجليل وشرف قطرهم المصري القديس كيرلُّس . وعليهِ فانَّ هذا النافور يرتقي الى القرن الخامس للمسيح (١ . لكن الصواب ان هذه الليتورجيَّة اقدم عهدًا واعلى مقامًا فانَّ تقليد الكنيسة المصريَّة المتواتر يثبت انَّها لتلميذ بطرس هامة الرسل اعني مرقس الانجيليّ اوَّل ناشر الايمان المسيحي في الاقاليم المصريَّة وانَّما نُسبت للقديس كيرلُّس لأنهُ هو الذي دوَّنها واثبتها في بطون الصفحات مع بعض التغيير وكان الكهنة قبلًا يتلقونها من السلف مشافهةً اتلًا يطلع المشركون على اسرارها السامية (٢ . فمن ثمَّ يتَّضح ان هذا النافور شريف جدًا لأنهُ من الآثار الرسوليَّة المتبتة باحوال الكنيسة في اوائل النصرانيَّة

والاقباط يستعملون هذه الليتورجيَّة الجليلة في عيدنا هذا ايام الصوم الاربعيني فقط . ولعلَّ ابطالها في بقيَّة السنة كان في زمن يلسون البطريرك القسطنطيني الذي انكر على البطريرك مرقس التقديس بها كما سبق . ومن سمات هذه الليتورجيَّة انَّها ساذجة خلوة من بعض التصنُّع الذي وقع في الليتورجيَّتين السابقتين ليس فيها شيء من الدلائل المشيرة الى الهرطقات التي نجمت في القرن الرابع والخامس

٤ ثمَّ اعلم انهُ قد أُلحق بالليتورجيَّات الثلاث السابق ذكرها رتبة او نافور صغير يُدعى عند الاقباط تعمير الكاس (٣ وهو طقس معلوم يقدَّس بهِ دم الرب

---

(١ راجع Duschesne : *Origines du Culte*, p. 54

(٢ زعم الدويهي انَّ للقديس مرقس نافورًا وللقديس كيرلُّس نافورًا آخر . وارتأى « دون غيرانيه » انَّ القديس كيرلُّس وضع نافورهُ لاكرام القديس مرقس . والارجح ما اثبتناهُ

(٣ انَّ للموارنة نافورًا يشبه هذا النافور اسمًا يدعونهُ رسم الكاس لكنَّهُ يختلف معنًى وهو عندهم عبارة عن رتبة البروجيازمانا اي ما سبق تقديمهُ

الكريم اذا عرض للكاس عارضٌ اعني انَّ التقديس يعاد ثانيةً اذا لم تصحّ التقدمة الاولى لاحد الاسباب المذكورة في كتاب الانخولوجيون

٣ النوافير القديمة

هذه هي النوافير الثانية اليوم عند الاقباط وفيها كلها مع قدمها مسحةٌ من الآثار البوزنطيَّة سرتْ اليها من جرَّاء نفوذ بطاركة القسطنطينيَّة في سياسة المشرق وتدبير شؤون كنائسه بعد الاربعة الجامع الاولى

ولعلَّ سائلًا يسأل ألم يكن لنصارى مصر قبل هذا العهد ليتورجيَّة اخرى قديمة تخلو من هذه النوافل ؟

نجيب على ذلك ان احد علماء العاديات الشرقيَّة انانا في هذه السنة باكتشاف مهمّ هتك به قناع الشبهة من هذا القبيل . والعالم المذكور المانيّ الاصل يدعى ڤوبرمين (Wobbermin) اسعدهُ الحظّ بان يجد في دير لغرة بجبل اثوس كتابًا على رقّ الغزال يتضمَّن مجموعًا من الطقوس النصرانيَّة في مصر والكتاب المذكور مخطوط في القرن الحادي عشر باليونانيَّة وهو مصدَّر برسالة للانبا سيرافيون اسقف مدينة طما (Thmuis) في القرن الرابع وكان سيرافيون هذا معاصرًا للقديس اثناسيوس الاسكندري وهو احد اصدقائهِ الحميمين والمنتصرين لهُ في جهادهِ ضدّ شيعة آريوس

وقد فحص العلَّامة ڤوبرمين هذا الاثر الخطير فوجدهُ اشبه شيء بطقوس ذلك العصر وبيَّن انَّهُ لا يجوز ان يؤخر تاريخهُ الى بعد اواسط القرن الرابع وان بعض الصلوات التي فيهِ هي لسيرافيون المذكور كما ورد ذلك صريحًا مرَّتين في الكتاب ولعلَّهُ هو مؤلف القسم الكبير من هذا المجموع الشريف او يكون مؤلفها احد معاصريهِ بل احد اسلافهِ

ثمَّ انَّ لغة الكتاب وبعض ما يحتويهِ من الدلائل والاشارات التاريخيَّة لا تبقي ريبًا في انَّ هذا التأليف من اعمال القرن الرابع ومن جملة ذلك عبارة تلمح الى بدعة اريوس الحديثة وتنفي قولهُ الكفريَّ في اوَّل بروزهِ

امَّا مضمون الكتاب فانهُ يشمل ما يتعلَّق بالتقديس وتوزيع الاسرار المقدَّسة كالعماد والميرون والكهنوت والجنازات واجتماع ايَّام الآحاد . وكلّ هذه الرتب والطقوس

غاية في الاهميَّة والشأن تبيّن عادات المسيحيين الاقدمين وتثبت صحَّة تقاليد الكنيسة الكاثوليكيَّة من هذا القبيل

بيد أنَّنا نكتفي هنا ان نذكر النافور الذي سطَّر في افخولوجيون الاسقف سيرافيون فانهُ جدير بالاعتبار يؤيد تعاليم الكنيسة ويزيف اضاليل المبتدعين

والنافور المذكور قسمان. فالقسم الاول يحتوي على احدى عشرة صلاةً يقيمها الشعب المؤمن والموعوظون معاً قبل تلاوة الاسرار. وفي هذه الصلوات اشارة الى بسط الذراعين وغسل الايدي. وكان يُفصل بين الصلوات بقراءة من الاسفار المقدَّسة من العهد القديم والعهد الجديد. وهذا القسم الاوَّل يوافق مقدَّمات القداس كما هو جارٍ اليوم في كل الطقوس الغربيَّة والشرقيَّة

اما القسم الثاني وهو المختصّ بالمؤمنين فانهُ يبتدئ بتقدمة التقادم ويلي ذلك تسبحة التريساغيون على هذه الصورة : « قدّوس قدّوس قدوس الربّ الصباؤوت. السماء والارض ممتلئتان من مجدك ومن عظمة جلالك » وبعد التريساغيون صلوات منقولة عن كتاب « تعليم الرسل » الذي وجد في عهدنا وكان لوجوده صدىً حسن في كلّ جهات المعمور الكاثوليكيّ لقدم زمانهِ. ثمَّ يعقب ذلك ذكر عمل الرب في العشاء السرّي لمَّا بارك الخبز والخمر واحالهما الى جسدهِ ودمهِ الكريمين. كما ترى اليوم في الكنائس على اختلاف طقوسها

وفي اثر الكلام الجوهري ابتهال نعمة الروح القدس (Ἐπίκλησις) على التقادم حسب تقليد الكنائس الشرقيَّة قديمًا. وبعد هذه الصلاة ادعية اخرى للشعب المؤمن ولانفس الراقدين بالرب « كي ينيلهم السكنى في ملكوتهِ »

ثمَّ يتلو الاسقف صلوات الاستعداد لتناول القربان الاقدس يفتتحها بثلاث صلوات مخصوصة بكسر الخبز وهو طقسٌ لم يُذكر ذكرًا واضحًا في النوافير القديمة ما خلا نافور سيرافيون. ثم يتناول الاسقف الاكليروس الحاضر ويبارك الشعب ويختم القدَّاس بدعاء الشكر الى الله

فهذا النافور كما ترى يوافق في اقسامهِ الجوهريَّة اقدم الليتورجيَّات المعروفة وهو شاهد جديد على قدم طقوسنا الالهية. واذا قابلناهُ بالليتورجيَّات الثانية في القرون الاولى وجدنا انهُ اقرب الى نافور الكنيسة السريانية منهُ الى غيرها من الكنائس

والارجح انّ الكنيسة الاسكندريّة اخذتهُ عن ليتورجية القديس يعقوب الرسول والله اعلم

وفي الختام نثني على همة صاحب هذا الاكتشاف المهمّ لانّ كتابهُ هذا انبأنا بلسان حالهِ على شأن نوافيرنا الحالية التي لا تختلف عن نوافير اجدادنا الّا في الاعراض. فسبحان الله الذي لا يزال يؤيد ايماننا بوسائل جديدة وينفي عنا الشبهات بمنّه وكرمه والسلام

# نبذة من كتاب الباكورة

للورفسقوس جرجس شلحت الحلبي السرياني

مقالة في تأويل قصيدة ابن سينا الشهيرة في النفس تأويلًا يحميها من ربقة الرعم الضالّ الذي بنيت عليهِ وهو قول افلاطون بان النفوس تقدّمت الاجسام في الوجود. فلمّا خطئت في السماء قضى الله عليها بسجن الجسد

١

هبطتْ اليك من المحلّ الأرفع ورقاء ذاتُ تمنّعٍ وتمنّعِ

هذا البيت هو مطلع قصيدة مشهورة لابن سينا في النفس. وهي برمّتها تُلمع الى ما ذهب اليهِ افلاطون (١ من ان النفس وُجدت في السماء قبل اتحادها بالجسم. فلمّا خطئت قضى الله عليها بسجن الجسد. وعلى هذا فقد شاهدتْ في زعمهِ الطبيعة الالهيّة قبل تجسُّدها وستشاهدها بعد انتقالها من هذه الدنيا. وكان يقول ان النفس حياة خالدة محجورة في جسمٍ فانٍ والموت ضربٌ من البعث فان مات الحكيم انفتحت نفسهُ للحقائق السامية ورأت الله مبدعها

وذلك القول بان النفوس وُجدت قبل وجود الاجسام مردود عند الحكماء ببراهين قاطعة أخصّها انّ الله سبحانهُ لم يخلق الخلائق الّا في حالة كمالها. ومن المعلوم انّ كمال الانسان قائمٌ باتحاد النفس بالجسد. وتاهيك ان النفوس ان كانت منذ بدء العالم فلا جرم انها كانت مُتحلّية بقواها العقليّة عاملةً بها. فكيف يا تُرى نسيتْ كلّ ادراكاتها السابقة ولا يردّ ذلك ما اتى بهِ افلاطون برهانًا على زعمهِ من ان النفس لا تكتسب معاني الجمال والحقّ والخير والعدل بالاختبار بل تتجلّى لها كأنّها تتذكّر امرًا قديمًا على حدّ قول صاحب نظم السلوك:

---

١) افلاطون احد مشاهير فلاسفة اليونان وتلميذ سقراط ولد سنة ٤٣٠ ق م وتوفي سنة ٣٤٧